العلوم الأخروية
صفات طالب العلم

الدرس الثالث :

« لفضيلة الشيخ سليمان المدنى »

كان الكلام في أنحاء العلوم الأخروية ، ومما يظن انه من علم الدين ومن علم الآخرة «علم الكلام» .. وعلم الكلام معروف لدى العلماء وربما مزج هذا العلم ببعض القواعد العقائدية وصارت كتبه تشتبه بكتب العقائد وبكتب الاخلاق والحقيقة ان علم الكلام في أصله هو من المباحث الفلسفية التى دخلت عند المسلمين بسبب مخالطتهم لليونان وبسبب ما ترجم من كتب فلاسفة اليونان على أيدى كثير من المسيحيين في البداية ثم على أيدى المسلمين بأنفسهم بعد ان عرفوا تلك الأمم بحيث لا تتميز اليوم الكتب الموضوعة في علم الكلام من الكتب الموضوعة في علم الفلسفة فكلها تبتدأ ببعض مباحث المنطق ثم مباحث الوجود ثم تأتى المباحث الفلسفية بعد مبحثه ولا تتمايز هذه الكتب الا بأن في الكتب الكلامية يبحث مثلا في التوحيد ـ عن وجود ا سبحانه وتعالى أو عن النبوة أو الامامة أو ما جرى الاختلاف بين المسلمين فيها وعن البعث والنشور .

ولا شك ان الفلاسفة الأقدمين يبحثون عن الصانع «جل وعلى» يبحثون عن الوجود .. وهل ان الوجود ينقسم الى واجب وممكن ؟ أو انه ليس فيه واجب أو انه كله واجب على حسب اختلاف التصورات الفلسفية ، هذه المباحث ورثها المسلمون وحاولوا تطويرها بما يتلاءم ووضعهم الدينى وسموها بعلم الكلام واكثر ما يدرس علم الكلام للمناظرة والمجادلة بين الفرق المختلفة فان كل فرقة تحاول ان تقيم حججها ، ان تقيم مناظراتها تجاه الفرق الأخرى على ضوء هذا العلم ، وتحاول الاستدلال بالمسلمات في علم الكلام للتوصل الى التغلب على الخصم في الاعتقاد .

والحقيقة ان كثيرا من المسلمين أخذ هذا المجرى اما لانه لا توجد مسلمات تلتزم بها كل الفرق فيحاول الاستدلال على خصمه مما يعتقد انه مسلما عندهم ولو كان لا علاقة له بالدين مطلقا وذلك مثل المناظرات التى تجرى بين المسلمين والمسيحيين أو المناظرات والمجادلات التى تجرى بين المسلمين واليهود .

تقريبا لا توجد هناك مسلمات يلتزم بها المسلمون والمسيحيون من الناحية الدينية والاستدلال مثلا بما هو موجود في الأناجيل لا يؤمن به المسلمون وما هو موجود في القرآن لا يلتزم به المسيحيون .

فاذا لابد من الرجوع الى مسلمات يلتزم بها الخصم فلذلك لجأوا الى القواعد الفلسفية واشتقوا منها ما يناسب بعض المباحث الدينية واطلقوا عليه اسم علم الكلام أو علم الجدل أو علم المناظرة على اختلاف هذه التسميات ، ولم يكن المسلمون في الصدر الاول في حاجة الى هذه المباحث وما كانوا ايضا يستعملون هذه المباحث وانما هى من «البدع» باتفاق كافة فرق المسلمين وان كانت الحاجة في الأزمان الآخرة قد مست الى طرق هذه القضايا والى طرق هذه العلوم ولكن لا على سبيل الوجوب العينى على كل المكلفين لأنها لاتفيد علما بحقيقة الاعتقاد وانما على سبيل الوجوب الكفائى الذى اذا قام به البعض سقط عن الكل وذلك لدفع شبه المعاندين عن ضعفاء المسلمين .

نضرب مثلا لما ألم بهذه الأمة من فتنة كبيرة عمت كل أقطارها وهذه الفتنة هى الفلسفة المادية التى كادت ان تستحوذ على عقول معظم الشباب ، ولا شك انه لولا وجود المتكلمين من المسلمين ومناقشة هؤلاء الماديين وتوهين مقالاتهم وفضح مغالطاتهم وشبهاتهم لما أمكن ارجاع هذه الجماهير من المسلمين الى حظيرة دينهم .

لكن هل ان ذلك يفيد فهما في أصل العقيدة ؟ أو يفيد افادة في تقرير حق الاعتقاد ـ لا ـ ولذلك نهى الأئمة «ص» عن الجدال ، وتكثرت الروايات في ذلك .. وحتى حاول بعض متكلمى الشيعة في أيام الامام «الرضا» «ع» بأن النهى انما ورد لغير القادر واما القادر فان النهى لم يرد اليه الا ان الامام الرضا «ع» قال لمن يحسن ولمن لم يحسن !

لماذا ؟

في الحقيقة ان الدعوة الى الله سبحانه وتعالى ، الدعوة الى الدين واجب على المسلمين كلا بحسب استطاعته تنفيذا لقوله تعالى : (ادعوا الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) .

وقال سبحانه وتعالى : (وجادلهم بالتى هى أحسن) وقال سبحانه وتعالى : (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن) وهذه الايات آيات محكمة ومعنى آيات محكمة هو : ان من يعرف اللغة العربية لا يلتبس عليه معناها ولا تختلف انظار المتكلمين بالعربية في فهم معناها ـ فتكون من الآيات الواضحة المعنى ، النيرة المنار ، فكيف اذن نوفق بين هذه الآيات المحكمة التى أمرت بالدعوة ـ بالحكمة والموعظة الحسنة .. وجادلهم بالتى هى أحسن وبين الروايات التى نهت عن الجدال والتى نهت عن المناظرة ، وخاصة الرواية المروية عن الامام الرضا «ع» وذلك لمن يحسن ولمن لا يحسن !

الواقع ان بعض الروايات التى شرحت ذلك فقالت : لأن المجادل المعاند قد يورد حقا يريد ان يتوصل به الى الباطل فيضطر المتكلم معه والمجادل له في مقام دفع شبهته عن الناس خاصة فيمن يحضر ذلك المجلس ـ مجلس المجادلة ـ ان يمجد ذلك الحق حتى لا يستغله المبطل للتوصل به الى الباطل وفي هذا القول يقول الامام الصادق عليه السلام « فاذا فعلت ذلك كنت مثله » هو أنكر حقا وأنت أنكرت حقك ـ فاذن ـ الفعل الواحد اذا كان مذموما عند الله من جهة لا يعقل الا اذا كان مذموما عند الله من الجهات الاخرى ـ لا ـ يمكن ان يباح جحد الحق للمسلم ويحرم ذلك على المبطل بل ان جحد الحق لأى غرض كان ولأى سبب لا يجوز في الشريعة الاسلامية ويكون صاحبه مبطل غاية ما هناك ان هذا يمجد حقه وهذا الشخص الآخر

ايضا يجحد حقا آخر وكذلك لو فرضنا هذا لمن يحسن أى لمن يقدر على المجادلة ويعرف المداخلة والمخارجة واما من لا يحسن ، بمعنى العاجز عن فهم قواعد الجدال والعاجز عن القدرة على تحليل القضايا وتفنيدها - هذا قد يضعف امام المبطل فاذا ضعف في يد المبطل يستمعن ضعفاء المسلمين لذلك بل ربما تستحوذ عليهم الشبهة بخلاف المجادلة التى هى أحسن ، فالجدال بالتى هى أحسن هو اتباع اسلوب القرآن فان القرآن مثلا وهو يحاور المشركين في البعث والنشور لا يتكلم معهم في قضاياهم ولا يتكلم معهم فيما يثيرونه من مشاكل فكرية - بل ينبههم الى شيء يحسونه في انفسهم ، «ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذى خلقكم أول مرة » الى غير ذلك من الآيات .

وهذا الاسلوب/ الاسلوب الحكيم في المناظرة - هذا - لم ينهى عنه احد لأنه لا يجر الى انكار باطل ولا يضعف المؤمن باتباعه على ان علم الجدل في حقيقته ليس علما من العلوم لأنه لا يتوصل به الى حقيقة بل هو مزيجا من الخطابة وفن الشعر وفن المغالطة مع صبه فيما يسمى بفن البرهان فيظهر الى الناس على انه برهان علمي يعتمد على البحث عن العلل ولكنه في الحقيقة يفترض عللا ليست صالحة للتعليل بها ، ومن قراء كتب المتكلمين يتضح له معنى ذلك العلم المطلوب في الدين والذى يسعى الانسان على طلبه انما هو «علم الفقه» سواء ان كان علم الفقه الاكبر الا وهو «العقائد والاخلاق» أو علم الفقه الاصغر وهو المتعلق بالشرائع والاحكام ، ومن الطرق التى أمر الله سبحانه وتعالى ان يؤخذ منها العلم .

أما علم الآخرة الذى هو علم الدين - علم الفقه له آداب لا يمكن تحصيله على حقيقة الا يأتى بها ، وهذه الاداب أولها تطهير القلب من عوامل الشهوات وعن عوامل الغرائز .... وعن التكبر ، يقول الامام «على» عليه السلام في حديث له بما معناه ان طالب العلم ثلاثة (عالما يطلب العلم للجهل والمراء أى ان يمارى به العلماء في المجالس وطالبا آخر يطلب العلم للاستطالة والخيلاء وطالبا ثالثا يطلب العلم للعمل وللوصول الى الله سبحانه وتعالى .

ولا شك ان الطالب الاول الذى يطلب العلم للمجادلة ومزاحمة العلماء هذا الانسان مبتلا بداء حب العلو وحب الرفعة وحب السمعة ، ولذلك يقول أمير المؤمنين «عليه السلام» وصفه في «دق الله هذا من خيشومه» .

ومعنى «دق الله خيشومه» أنزل قدره - أخفض شأنه - أذله ، لأنه يطلب بالعلم ان يرتفع على الناس ، ان يستطيل عليهم ، وأمير المؤمنين عليه السلام يدعو عليه بالذلة .

0 الطالب الثانى الذى يطلبه «أى العلم» للخذل والاستطالة فهذا ايضا يريد ان يستاكل الدنيا بالدين ، وهو في حقيقته انما طالب دنيا وليس طالب دين ، ولذلك يدعو عليه أمير المؤمنين «عليه السلام» بقوله (محق الله من ديوان العلماء اثره) .

0 والطالب الثالث الذى يطلبه للآخرة وللعمل به والذى يصفه أمير المؤمنين عليه السلام بانه يستشعر الحزن ويسهر الليل وينصح لخلق الله ، فاذا يدعو اليه أمير المؤمنين عليه السلام فيقول : فشد الله من هذا أركانه وأتاه يوم القيامة أمانه» ، فطالب العلم ينبغى له أول ما ينبغى ان يطهر قلبه من غوائل الشهوات وغوائل الاخلاق الضارة والرذائل التى تعلق بالنفس لأن العلم عبادة القلب ، فكما لا تصح الصلاة من طهارة ولا تكون تلك صحيحة ومقبولة الا ان تكون عن طهارة من الحدث وان تكون الثياب والبدن طاهران كذلك عبادة القلب لابد فيها من الطهارة القلبية ، والطهارة القلبية هى بتنقية القلب من الحرص - الشح - الحسد - وحب الزعامة وحب الاستطالة وحب المجادلة والمخاتلة الى غير ذلك من الصفات المذمومة حتى تكون عبادة القلب أيضا واجدة لشرط الطهارة ومقبولة من الله سبحانه وتعالى .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ان الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب» فاذا كان ذلك ، هل المقصود بالبيت خصوص هذا البيت الدنيوى الذى يسكنه البشر ؟

القلب أيضا هو بيتا للملائكة فيه تتنزل الملائكة وفيه يقذف الله نور العلم بواسطة الملائكة فاذا صارت فيه كلاب الشهوة نابحة لا تدخله الملائكة وعندئذ لا يقذف فيه العلم .. ولن يسكنه ؟ يسكنه الشيطان ، فاذا سكنه الشيطان العلم لا يصل اليه وانما تصل اليه الوسوسة ، وان هناك فرق بين لمه الملاك ووسوسة الشيطان .

فاذا ينبغى لطالب العلم ان يتواضع في طلبه العلم وينبغى ايضا لمن يعلم الناس ان يتواضع في تعليمه .

أما مثلا التكبر من الطالب أو التكبر من الاستاذ أو نية التكبر بطلب العلم بأن أطلب العلم حتى اكون مقدرا بين الناس - هذا من الختل الذى وصفه أمير المؤمنين «عليه السلام» لحب الاستطالة وهذا لا يوفق صاحبه لو طلب العلم لامر دنيوى فهو لا يوفق - لماذا ؟

لأن العلم في الحقيقة ليس موجودا في الكتب حتى انه اذا قرأ الكتاب أو سمع شرح المدرس في ذلك الكتاب يكون عالما - العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده .. وهذا النور انما يقذف بواسطة الملائكة التى تتنزل على قلبه .. فاذا صار حب كلب الزعامة وحب كلب الشهوة فكلاب الشهوات النجسة ساكنة في ذلك القلب لا تدخله الملائكة فلا يصله النور مطلقا وبالتالى يظن نفسه قد فهم شيئا من العلم وهو لم يفهم الا القشور ، ولذلك العلم تارة يكون بالهام من الله سبحانه وتعالى كما هو للأنبياء والأوصياء «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين» وتارة يكون بالسماع من أولياء الله وانبيائه .. ولا يوجد للعلم الاخروى الا هذان الطريقان .

طريق الالهام من الله وطريق السماع أو أولياء الله «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين متى ما كان القلب غير متجها الى الله - متى ما كان قلب طالب العلم غير متفرغا الى الله سبحانه وتعالى هذا الانسان لا يوفق في تحصيله فكذلك ينبغى لطالب العلم ان يجاهد نفسه وان يحارب ما في قلبه وما في نفسه من الشهوات وان يخلى نفسه من رذائل الاخلاق وان يحلى نفسه بالفضائل حتى تتنزل الملائكة عليه ويكون كما قال الصادق «ع» ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا به» وطالب العلم هذا من فرغ نفسه من كلاب الشهوة - طبعا تتنزل عليه الملائكة تتنزل على قلبه - تفرح به - ترضى ان يطأ أجنحتها بقدمه ، ولذلك يكون قلبه مرآة صافية لأنوار الله « سبحانه وتعالى» ..

الله سبحانه وتعالى ، فياض للنور أى بمعنى لا بخل في ساحته - لا - تظنوا ان الله يفيض النور على زيد ولا يفيضه على عمر - الله يفيض النور على كل البشر ولكن كلا يأخذ من ذلك النور بقدر استعداده .. وكلا يأخذ من النور بقدر صفاء قلبه .

تصوروا مثلا ان شمسا طالعة وتوجد مرايا متعددة تتفاوت في جلائها تتفاوت في استوائها في نظافتها - هل يعقل ان كل هذه المرائى تستفيد من نور الشمس وتعكس الشمس وأنوارها بدرجة واحدة - طبعا لا - وانما كل مرآة منها تعكس نور الشمس بقدر ما تستطيع هى ان تطبع - هكذا قلوب البشر . الله سبحانه وتعالى لا يبخل في ساحته بل هو الكريم المطلق فهو يفيض الأنوار نور العلم على كل البشر ولكن قلوب البشر واستعدادات البشر كل واحد منهم يستقبل من ذلك النور بقدر طاقته - استعداده - بقدر صفاء مرآة قلبه .

وبالطبع ان الاستعداد نوعان هما استعداد تكويني واستعداد ارادي والاستعداد التكويني لا دخل للانسان فيه «يعني من أعطاه الله درجة معينة من الذكاء لا دخل له فيها لايقال انه قصر لأنه لم يصل لدرجة زيد من الناس بالذكاء» لأن هذا أمر تكويني لا دخل لارادة فيه .

وأما النوع الثاني من الاستعداد فهو الاستعداد الارادي وعلى سبيل المثال - زيد يجاهد نفسه وعمر لا يجاهد نفسه - زيد كلما أحس من نفسه شهوة تريد التغلب عليه حاربها - قاومها - طاردها - عمر يندفع مع تلك الشهوة حتى تسيطر عليه - طبعا الأنوار الربانية التي يتحصل عليها زيد والافاضات الربانية التي يتوصل اليها عمر !

لكن هو معذور في عدم تحصيله لتلك الأنوار ؟ لأن هذا ليس استعدادا خلقيا ليس أمرا تكوينيا وانما هو بارادته فهذا حيث التزم بالجهاد الاكبر في مجاهدته لنفسه تحصل على قدر أكبر من النور الالهي بقدر الاستعداد الفطري وبقدر الاستعداد التكويني الذي خلقه الله عليه .. وهذا لما أهمل نفسه وسار مع كلاب الشيطان العاوية في قلبه حرم من هذه الانوار ، ولذلك نجد ان شخصا يكون من ناحية الخلقة أقل مستوى في الذكاء لكنه يتفوق في العلم ويتفوق في التحصيل على رفيع الدرجات في الذكاء - لماذا ؟

هذا ان الله سبحانه وتعالى أعطاه من الاستعداد الخلقي ما لم يعط ذاك لكن هذا الذي هو أقل درجة في الاستعداد التكويني صار أرقى ممن له درجات أرقى في الاستعداد التكويني والسبب في ذلك مجاهدة هذا الشخص لنفسه واهمال الشخص الثاني لنفسه .

يقول الله «سبحانه وتعالى : «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» فلمجاهدة هذه النفس لمجاهدة الرغبات والغرائز اثرا كبيرا في صفاء النفس ، يعني ان الانسان قد يبتلى بالسيئات لأن المعصومين من البشر قليلون هم الانبياء والأوصياء «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين» أما بقية الناس غير معصومين وقد يبتلى بالسيئات - ولكن اذا جاهد نفسه وعمل الحسنات هذه الحسنات تمحو تلك السيئات تزيل اثار تلك السيئات .

السيئات دائما توجد حجابا على القلب ترين بمرآة القلب كما يقول سبحانه وتعالى « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» فاذا الكسب له معنى عظيم فمثلا حينما نقول زيدا يكسب على عياله هذا القول ما معناه ؟

الكسب ليس هو العمل بل هو نتيجة العمل وعندما يعمل زيد يحصل أجره ، هذه الاجرة هي الكسب نتيجة العمل كذلك الكسب هنا نتيجة الفعل فعل السيئة له كسب وفعل الحسنة ايضا له كسب «السيئات ترين بمرآة القلب - الحسنات تجلو مرآة القلب» .

يقول النبي «ص» في حديثا بما معناه «انه كلما ارتكب العبد سيئة نكت في قلبه نكتة فلا تزال تكبر تلك النكتة بارتكاب السيئات حتى يعم سواد الحجاب القلب كله ، يغرق الانسان ويموت ضميره - لا يؤنبه ضميره على أي سيئة كانت يرتكبها لأن هذا القلب لا يعرف شيئا اسمه النور . كما ولد في طامورة مظلمة ولم يخرج منها ولم يخبره احد بأن هناك في الدنيا شيء اسمه ليل وشيء اسمه نهار وان النهار مبصر والليل مظلم - لم - يسمع بشيء وهذه هي البيئة التي ولد فيها وعاش فيها وهو لا يدري ان هناك سماء وفي السماء نجوم وقمر وهناك شمس وهناك ليل ولا يعلم !

فاذا لا يبصر هذا القلب الذي ترين عليه السيئات ايضا لا يحس بشيء من النور حتى يؤنبه ضميره بارتكاب فعل من الافعال فتتساوى عنده كل الافعال ولكن أيضا يقول النبي «ص» بما معناه فاذا عمل الانسان الحسنة نكت في قلبه نكتة من النور ولاتزال تلك النكتة تكبر بفعل الحسنات حتى تعم القلب كله » أي بمعنى لا ينبغي للانسان ان ييأس من نفسه مهما كانت ذنوبه ولا ينبغي للانسان ان يعتمد على عمله مهما كانت حسناته والانسان غير معصوم وهو معرضا للخطا وعليه ان يكافح اثار تلك الاخطاء بما يقدر من أفعال الحسنات .

ولو افترضنا ان انسان ارتكب معصية ولكنه بادر الى فعل الخيرات ندم على ارتكاب السيئة وعزم على ان لا يعود لمثلها ثم أخذ يضاعف افعال الحسنات مثل الصلاة - الصيام - الصدقات ، يضاعف فعل الخيرات هذا لا شك تمحي عنه اثار تلك السيئة ويعود قلبه الى الصفاء (الى الحسنات يذهب السيئات) .

فاذا المجاهدة للنفس هي اساس الانوار الالهية وسطوعها في القلب وان الله سبحانه وتعالى قد وعد بأن من جاهد نفسه ان يهديه الى سبيله عملا بقوله : والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ويقول الامام الصادق «عليه السلام» ، ان العالم هو من لم ييأس الناس من روح الله ولم يؤمنهم عذاب الله» وهذا الكلام ردا على كثير من الفرق الضالة ولم يضيق عليهم في الدين .

الكلمة الاولى رد على المعتزلة الذين ادعوا بأن مرتكب الكبيرة كافر وهي ردا على الخوارج الذين ضيقوا على الناس في دينهم !

والكلمة الثانية ردا على الاشاعرة والمجسمة الذين اغتروا بالشفاعة . والشفاعة حق لكن لا ينبغي الاعتماد على الشفاعة لأن هذا أمنا من مكر الله سبحانه وتعالى كما لا ينبغي بسبب ارتكاب الكبائر ان ييأس الانسان من رحمة الله .

المعتزلة قالوا يجب على الله ان ينفذ وعده ووعيده فاذا كان والعياذ بأن ينفذ وعده ووعيده فلا توجد رحمة ! أي ان كل من زنا يخلد في النار وكل من شرب خمر يخلد في النار - توعد عليها على أقل ما يكون التخليد في النار .. فاذا قلنا بأن الوعيد يجب على الله سبحانه وتعالى ان يفعله كما يجب عليه ان يبر بوعده فهذا تيئيس للعصاة من رحمة الله . فاذا ييئس الانسان من رحمة الله ماذا يبقى له من الارتباط مع الله ؟

أولئك أيضا الذين قالوا بأن هذه الكبائر كلها تسقط كلها تذهب كما يقول اليهود مثلا في دينهم لن تمسنا النار الا اياما معدودة ثم تنتهي بالشفاعة ! هؤلاء ايضا تجرأوا على الله سبحانه وتعالى .

الله هو الملك وهو المالك الحق ومن حقه ان يعاقب ومن حقه ان يعفو فانت من أين تضمن انه يعفو عنك ؟ هذا ايضا اغتراضا بالله سبحانه وتعالى . فاذن لا ينبغي للانسان ان ييئس الناس من رحمة الله ولا ينبغي له ان يؤمنهم من مكر الله .. وينبغي له في حد ذاته ان يجاهد نفسه في سبيل الله فانه هو الجهاد الاكبر وهو اساس العلم واساس الفهم واساس الفقه في الدين . وان الله سبحانه وتعالى يؤتي من جاهد نفسه من العلوم ومن فهم أسرار الكتاب ومن فهم اسرار السنة ما لا يؤتاه اذكي الناس اذا لم يجاهد نفسه .

ولا يغترن احدا بفهمه وذكاءه ويقول انني أعول على فهمي وعلى ما رزقني الله من ذكاء وانني قادرا على فهم اسرار دين الله فان اسرار دين الله ليست في الكتب ولا يطرحها الاساتذة في مقامات التدريس ولا ييئس من يجد نفسه لا يفهم الاشياء الا بصعوبة فانه اذا جاهد نفسه واخلص لله وطرد غوائل الرذائل عن قلبه فان الله سبحانه وتعالى يفتح له أبواب العلوم وأبواب أسرار كتابه بحيث يبسر له ما لا يدركه من هو فوقه ممن أوتي نصيبا من عقل أو ذكاء وهذه أهم آداب المتعلم أو آداب طالب العلم سواء أكان مدرسا أو طالبا .

الدرس الرابع - الصلاة -

في العدد القادم